فلسفة القصة

ولماذا لا أكتب فيها..؟

للاستاذ مصطفى صادق الرافعي

سألت الاستاذ مصطفى الرافعي ، لماذا لا يكتب فى القصة ، ولماذا يخلو أدبه منها ؟

— فاجاب :

« لم أكتب فى القصة الا قليلا ، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم ، ولكنى مع ذلك لا أرانى وضعت كل كتبي ومقالاتي الا فى قصة بعينها ، هى قصة هذا العقل الذى فى رأسى ، وهذا القلب الذى بين جنبي .

« شاع أدب القصة فى أوربا ، وطغى عندهم على المقالة ، والكتاب وديوان الشعر جميعا ، فقام عندنا المتابعون فى الرأى ، والمقلدون فى الهوى ، والضعفاء بطبيعة التقليد والمتابعة — قاموا يدعون الى هذا الفن من الكتابة ، ولا يرون من لا يكتب فيه الا مدبرا عن عصره وأدب عصره . ولا جرم اذا كانوا هم أنفسهم مدبرين عن الحقيقة ومعنى الحقيقة . وأنت متى كان وجهك إلى الباطل وظهرك الى الحق ، فهما تتقدم فى رأى نفسك فانما تتأخر فى رأى الحق ، وكلما قطعت الى غايتك رأيت الذى وراءك متخلفا متراجعا بمقدار ما أبعدت كأنه فى أمس ، وكأنك فى غـــد ، ولا يوم بينكما يجمع منكما ما تفرق .

« أنا لا أعبأ بالمظاهر والأعراض التى يأتى بها يوم وينسخها يوم آخر . والقبلة التى أتجه اليها فى الأدب انما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب الا ما يبعثها حية ويزيد فى حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب كلها الا نواحيها العليا — ثم انه يخيل الى دائما أنى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ، فأنا أبدأ فى موقف الجيش (تحت السلاح) لما يعانيه وما يكلفه وما يحاوله ويبغى به وما يتحاماه ويتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته فى أعماله دون سواها . وكيف اعترضت الجيش رأيته فى نفسه ، لا فلك أنت ولا فن سواك ، اذ هو لطريقته وغايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ

« وقد عابنى مرة أحد الكتاب بأنى (لا أكتب فى الدراما) فلو أن هذا الكاتب وقف على شاطئ المحيط وجعل يتهكم بالاسطول الانجليزى فيزرى عليه أنه ليس شيوعيا ولا بلشفيا ، فما عسى أن يقول الاسطول اذا هو أجابه الا أن يقول شيئا كهذا : تبارك من صنع هذا الانسان مدفع لهم لأطلاق الكلام الفارغ .

« أنا من أجل ذلك لا أزال الى الآن مع الأدب العربى فى فنه وبيانه أكثر مما أنا مع الحكاية ولغتها وعواطفها ؛ فأكبر عملى إضافة الصور الفكرية الحية الى أدبنا وبياننا متحاشيا جهد الطاقة أن أنقل الى كتابتى دواب الارض أو دواب الناس أو دواب الحوادث ، فان الكتب ليست شيئا غير طبائع كتابها تعمل فيمن يقرؤها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها . والرواية اذا وضعها كاتب فاجر ، فهى عندى ليست رواية بل هى عمل يجب أن يسمى فى قانون العقوبات (فجورا بالكتابة) .

« إن أكثر ما تراه من القصص ، وبخاصة هذه التى غمرت الكتابة عندنا — انما هى صناعة لهو ، ومسلاة فراغ ، وهذا قد يكون له وجه فى علاج الحياة العملية ، وفى تخفيف حطمة الاجتماع فى أوروبا وأمريكا ، ولكن ما موضعه عندنا فى الشرق ، والشرق إنما نعمل فى نهضته لمعالجة اللهو الذى جعل نصف وجوده التياعى عدما ، ولملء الفراغ الذى جعل نصف حياة الانسانية موتا ؟ هذا الضرب من القصة هو لرجالنا ونسائنا اذا قرأوه وتلهوا به أشبه بادخال أولئك الرجال والنساء — ادخالهم وادخالهن على الكبير — فى مدارس رياض الاطفال . .

« الأطفال يستلذون الحكاية بالفطرة لأنها تجيئهم بالدنيا التى يعسر عليهم أن يذهبوا اليها أو يغامروا فيها ، وتهيء لهم أن يشعروا خيالهم قوة الخلق فتكون لذتهم على مقدار من بعد هذه الدنيا عنهم وعلى مقدار مثله من طبيعة العجز فى خيالهم ، وهذا الضعف فى الناحيتين هو بعينه الذى يجعل لأكثر القصص شأنا عند سخفاء الناس وفراغهم ، وأهل الحق فيهم ، يسعرهم شهوات وخيالات وأوهاما من الباطل . فذلك إذن ليس أدبا يكتب ويقرأ ، بل هو بلاء اجتماعى يطبع ويوزع فى الناس ...

ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصا ، ثم تقرأ فتبقى قصصا ؟ وإن هى صنعت شيئا فى قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات

تكون مسكنات عصبية إلى حين : ثم تنقلب هي بنفسها بعد قليل إلى هيجات عصبية ؟ !

وأنا لا أنكر أن في القصة أدبا عاليا ، ولكن هذا الأدب العالي في رأيي لايكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها في الرواية كما يربى الأطفال على أسلوب سواء في العلم والفضيلة . فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون وطريقة محصة ، وغاية معينة ، ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر الذين تصبهم مواهبهم لالقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تثير الحياة أو تثيرها الحياة ، والأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الانسانية والحياة ، وما بين الحياة وموادها النفسية في هؤلاء وهؤلاء ، تتخيل الحياة فتبدع أجمل شعرها ، وتتأمل فتخرج أسمى حكمتها ، وتشرع فتضع أصح قوانينها .

« وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهم في الأدب رعاع وهمج كان من أثر قصصهم مايتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز — هذه الفوضى المقوتة التي لو حققتها في النفوس لما رأيتها إلا عامية روحانية محطة تتسكع فيها النفس مشردة في طرق رذائلها

إذا قرأت الرواية الزائفة أحسست في نفسك بأشياء بدأت تسفل ، وإذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك أشياء بدأت تعلو . تنتهي الأولى فيك بأثرها السيء ، وتبدأ الثانية منك بأثرها الطيب . وهذا عندي هو فرق مابين فن القصة ، وفن التلفيق القصصي ! !

* * *

هذا هو رأي الاستاذ الرافعي ننشره على أصله ، لينظر فيه الكثير من شبابنا الناشئين ، الذين أقبلوا على كتابة القصة ، لعل فيه ما ينفعهم ويفيدهم ، ويمهد لهم سبيل الكمال في انتاجهم .

اسعد حنا

مجموعة السنة الأولى للرسالة

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الأولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشا غير اجرة البريد في مصر وبخمسين قرشا في البلدان الأخرى

٢ ـ الاسماعيلية

الملقبون بالحشاشين

أين نشأ ابن الصباح :

ورد فيما مضى ذكر لدار الحكمة (١) وهي المدرسة التي أنشأها في مصر الحاكم بأمر الله العبيدي في القرن الثالث الهجري لتعليم مذهبه التوحيدي ، فلما مات أبو طاهر الجنابي عام ٣٣٢ هـ وهو الذي خلف أبا سعيد الجنابي كانت هذه المدرسة قد زهت وأفلحت فلاحا عظيما ، وكان أساس التعليم فيها قلب الخلافة العباسية وزوال دولتها ، وكان الدخول فيها مباحا لكل راغب ، ويلقى العلوم فيها شيوخ تصرف لهم المرتبات والمكافآت العظيمة من أموال الدولة ، وكانت علوم هـــذه المدرسة تسعة كلها دينية منقولة عن مبادىء ابن القداح (القداح هو ولد ديصان واسمه عبد الله ولقب بالقداح لانه كان يعالج العيون بقدحها ، وكان أبوه قد علمه الحيل ، وأطلعه على أسرار نحلته ومخاريقه ، فلما مات خلفه ابنه ، وكان يدعو الى ظهور المهدي في ذلك الزمان في اليمن ، وهو المذهب الذي تفشى في البحرين في القرن الثالث الهجري كما ذكرنا) .

وكانوا في الدور الأول من هذه العلوم يعمون على الطالب ويشوشون عليه تشويشا خفيفا ويلقنونه معنى مكتوما لمتن القرآن ، وفي الدور الثاني يفرضون عليه أيمانا وأقساما يقسم بها ويبالغ في حفظها ، ثم يعلمونه معرفة الائمة المقامين من الله تعالى الذين هم

(١) ذكر الكاتب في اكثر من موضع ان دار الحكمة المصرية أنشئت في القرن الثالث الهجري ، ويقول هنا إنها أفلحت وازدهرت في أوائل القرن الرابع . وهذا خطأ تاريخي بين ، فدار الحكمة الفاطمية لم تقم الا في أواخر القرن الرابع . أنشأها الحاكم بامر الله بصفة رسمية في جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ (مارس سنة ١٠٠٥ م) وكانت مجالس الحكمة تعقد قبل ذلك أيام العزيز منذ سنة ٣٨٥ هـ ، ويتولى تنظيمها قاضي القضاة . ولم يكن اساس التعليم فيها « قلب الدولة العباسية » كما يقول الكاتب ، ولكنها انشئت أولا لقراءة علوم الفقه طبق الاصول والتقاليد الشيعية ، ثم تطورت الى نوع من الدعوة الدينية والسياسة الفاطمية ، واتخذت اتجاها فلسفيا حرا ، ورتبت فيها الدعوات الفلسفية السرية الخطيرة (راجع خطط المقريزي ـ مصر ـ ج ٤ ص ٧ ـ ٧٢ ، ص ١٥٨ ، ج ٢ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ وما بعدها) (الرسالة)